عرض للأبحاث والدراسات الخاصة

بتاريخ ليبيا الحديث التى قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور

للدكتور جمال زكريا قاسم

مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

اقتصرت الدراسات التى قدمت الى مؤتمر ليبيا عبر العصور الذى نظمته كلية الآداب والتربية ببنغازى فى الفترة من ١٦ الى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ على سبعة أبحاث فى التاريخ الحديث من مجموع الدراسات التى قدمت الى المؤتمر والتى بلغ عددها سبعة وثلاثين بحثا تناولت مختلف العصور التاريخية التى مرت بها ليبيا ، ولما كان قد أتيح لى فرصة الاشتراك فى هذا المؤتمر لذلك رأيت أن أقوم بعرض للأبحاث الخاصة بالتاريخ الحديث ويمكن ترتيبها حسب ترادفهـا الزمنى على النحو التالى :

— ليبيا بين الحسن الوزان ومارمول ، للدكتور نيقولا زيادة — الجامعة الاميريكية ببيروت .

— علاقة منظمة القديس يوحنا بطرابلس ، للاستاذ فر . أ . فيلا — الجامعة الملكية بمالطة .

— حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياش فى رحلته ، للأستاذ عوض السعداوية .

— الظروف التى أدت الى احتلال على الجزائرلى لمدينة طرابلس الغرب . ١٧٩٣ — ١٧٩٥ ، للأستاذ عمر بن اسماعيل .

— ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر للأسـتاذ مصطفى بعيو وزير التربية والتعليم بالمملكة الليبية .

— موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ — ١٩١٤ ، للدكتور جمال زكريا قاسم — جامعة عين شمس .

ــ السنوسية فى الحرب العظمى الأولى ــ للسيردنكان ــ كمنج .

والدراسة الأولى لم تطبع فى الطبعة التمهيدية التى وزعت على الأعضاء خلال جلسات المؤتمر كغيرها من الدراسات وانما اكتفى الأستاذ نيقولا زيادة بالقائها ــ واعدا باعداد صياغتها ــ وارسالها الى سكرتارية المؤتمر حينما يأتى دور نشرها . وعلى ذلك فاننى سأعتمد هنا على تسجيل بعض النقاط التى أبرزها الباحث خلال عرضه لموضوع دراسته ..

ذكر الأستاذ نيقولا زيادة أن القرن السادس عشر يحتاج الى عناية خاصة من المؤرخين لأن هـذا القرن عرف مجموعة من الرجال قل أن تجتمع فى عصر واحد . ففى القسطنطينية كان سليم الأول وابنه سليمان يشغلان أكثر سنوات هذا القرن ، وفى المغرب كانت تقوم الدولة السعدية خاصة فى عهد أقوى سلاطينها أحمد المنصور الذهبى ، وفى أسبانيا كان فرديناند الكاثوليكى ، يضاف الى ذلك ظهور قواد من الدرجة الأولى من أمثال علوج وبربروسا وسنان باشا ، وعلى ذلك فانه يجدر التركيز بمزيد من الدراسات على تلك الشخصيات التى ظهرت سواء فى الشرق أو الغرب أو فى الشمال أو فى الجنوب .

وذكر الباحث أيضا أن أهم الأحداث المتعلقة بليبيا فى القرن السادس عشر يمكن ابرازها على النحو التالى :

أولا : محاولة ليبيا الاستقلال عن الدولة الحفصية بتونس .

ثانيا : احتلال الأسبان لمدينة طرابلس فى عام ١٥١٠ .

ثالثا : تخلى الأسبان عن طرابلس الى فرسان القديس يوحنا فى عام ١٥٣٠

وأشــار أن أهم الوثائق الخاصة بهذه الفترة تتمثل فى كتاب وصف افريقــة وتاريخها الذى وضعه الحسن الوزان الذى تعرفه المصادر الأوروبية باسم ليو الافريقى .

وقد تعرض الباحث الى ترجمة موجزة للوزان ذكر فيها أنه من غرناطة أو من المغرب ولعله من مدينة فاس ، كما كان يطيب له أن يلقب نفسه فى بعض الأحيان باسم « الفاسى » وقد أسر وهو صغير وتنصر أو أجبر على اعتناق

المسيحية وعاش فى كنف البابا ليو العاشر وتسمى باسمه ، ومن ثم صار يعرف باسم ليو يوحنا افريكانس .

ومع أنه ابتعد عن بلاده الا أنه زارها مرات كثيرة ، وفيما يبدو أن الحسن الوزان كان يعتز بافريقية ، ففى وصفه لأحوال البلاد التى زارها كان يسجل بعض العبارات التى يظهر منها اهتمامه بهذه المناطق وأسفه لما صارت اليه من سوء كأن يقول « يؤسفنى كافريقى » « أن أتحدث عن بلد بهذا الشأن » . وان كنا نجده فى بعض الأحيان يذكر بعض ألفاظ نابية عن الأفارقة ، ويستدل من كتابات الوزان أنه زار طرابلس فى عام ١٥١٨ وتردد على مختلف مقاطعات الشمال الافريقية خلال الفترة من عام ١٥١٨ الى ١٥٢٦ وعنى بوجه خاص بوصف المدن والشعوب التى شادت هذه المدن كأن يقول « وهذه من بناء البربر أو من بناء الرومان أو من بناء المسلمين » . غير أنه اذا جاء الى تهديم المدن وتخريبها فهو يلوم الأعراب فى ذلك .

ثم أورد الباحث الوثيقة الثانية التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة أحوال ليبيا فى القرن السادس عشر . وهى ما كتبه الرحالة الهولندى مارمول ويقرر أنه يتفق مع الوزان فى وصفه لبعض الأشياء لدرجة توحى أنه قد نقل عنه ، وان كان يختلف عنه فى بعض الأحيان ، وتدل اختلاف الاحصائيات التى أوردها مارمول من حيث عدد السكان أو تقدم التجارة عن مدى الانتعاش الذى شهدته ليبيا بين زمن الوزان وزمن مارمول ، مما يؤكد التطور السريع الذى مرت به البلاد ، خاصة وأن الفترة بينهما لا تتجاوز بضع عشرات من السنين ومن الأوصاف التى أوردها كل من الوزان ومارمول ذكر لنا الباحث بعض النواحى التى تميزت بها ليبيا كشهرة طرابلس بالحرير أو الى غنى بعض أقاليمها بالفاكهة .أو كما ذكر الوزان أن أكثر السكان فى جبل نفوسة ليسو سنيين وأنهم يتبعون شيخ القيروان ، ولما كنا نعرف أن شيخ القيروان كان فى ذلك الوقت سنيا لذلك لم يضبط الوزان وصفه هذا وأكد كل من الوزان ومارمول أن فزان ومصراته كانتا متصلتين بالتجارة مع دول السودان الغربى . وركزا على الطريق الصحراوى التجارى الذى كان يصل شنقيط بمصر . وعن غنى غريان بالزعفران هذا الى جانب تسجيل الرحالتان نواحى كثيرة من حياة الناس ومعيشتهم فى هذه المناطق .

ثم يختتم الباحث دراسته بالاشارة الى بعض الوثائق التى يمكن الرجوع اليها لدراسة هذه الفترة خاصة تقارير البعثات السياسية الى جانب أعمال كل من الوزان ومارمول .

أما الدراسة الثانية فموضوعها « علاقة منظمة فرسان القديس يوحنا بطرابلس » وقد وضع هذه الدراسة الأستاذ فر . أ . فيلا رئيس قسم التاريخ بالجامعة الملكية بمالطة .

وقسم الباحث دراسته الى ثلاثة أقسام تعرض فى القسم الأول الى نشأة المنظمة والمناطق المختلفة التى تنقلت اليها قبل وصولها الى طرابلس وهى الفترة من ١١١٣ — ١٥٣٠ .

وفى القسم الثانى الى تنازل الامبراطور شارل الخامس المنظمة عن كل من مالطة وطرابلس فى عام ١٥٣٠ ، أما القسم الثالث فقد تعرض فيه الى حكم الفرسان لطرابلس فى الفترة من عام ١٥٣٠ حتى انسحابها فى عام ١٥٥١ بوقوع طرابلس فى قبضة الأتراك العثمانيين .

ويذهب فيلا فى دراسته الى أن منظمة القديس يوحنا التى صارت تعرف فيما بعد باسم المنظمة الملكية بمالطة كانت نتيجة من نتائج الحروب الصليبية الأولى وقد أنشئت بمقتضى مرسوم بابوى منحه البابا بسكال الثانى لمؤسسها جيرار فى عام ١١١٣ ، وكانت فى بداية نشأتها كمنظمة اسبتارية تستهدف أغراضا انسانية بحتة لعل أبرزها مساعدة فقراء المسيحيين من الحجاج عند مجيئهم الى بيت المقدس ، ثم وكل الى المنظمة بعد ذلك الدفاع عن بيت المقدس حتى عام ١١٨٧ حينما أرغمت على الانسحاب بعد هزيمة الصليبيين الى ماراجات . ثم نقلت مركزها الى عكا فى الفترة من ١١٩١ — ١٢٩٢ حيث استمر فرسان المنظمة يظاهرون مؤخرة الجيوش الصليبية حتى سقوط المدينة فى أيدى المسلمين ومن ثم تحولوا الى جزيرة رودس فى الفترة من ١٣١٠ — ١٥٢٢ وأخذوا من هناك يمارسون نشاطهم البحرى ضد القوى الاسلامية فى منطقة شرق البحر المتوسط . وقد علل فيلا الظروف التى أدت الى استيلاء المنظمة على طرابلس ، ذلك أنه بعد طرد الفرسان من رودس على أيدى الأتراك العثمانيين أصبحت المنظمة بلا مأوى ، ولذلك أصدر الامبراطور شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية

المقدسة وملك أسبانيا فرمانا فى عام ١٥٣٠ بمنح المنظمة كل من جزيرة مالطة وقوزو وطرابلس ، ومن المعروف أن طرابلس كانت خاضعة لأسبانيا منذ عام ١٥١٠ ولكن شارل الخامس بالنظر الى حروبه المستمرة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا وانشغاله بالحروب الايطالية أصدر قراره بالتخلى عن طرابلس حتى يكسب الى جانبه الرأى العام المسيحى . ولعله أراد أيضا التفرغ للحروب الايطالية من ناحية ، فضلا عن استفادته بجهود المنظمة من ناحية أخرى .

وقد يكون المهم فى بحث فيلا أنه ينبهنا الى الوثائق الخاصة التى يمكن الرجوع اليها من دراستنا لبعض الموضوعات المتعلقة بالمنظمة وبطرابلس خلال خضوعها للفرسان ، ومن أهم هذه الوثائق التقرير الذى أعده مبعوثو المنظمة الى طرابلس ومالطة قبل استيلاء المنظمة على هذه المناطق ولا يزال هذا التقرير محتفظا به فى الأرشيف الخاص بمنظمة الفرسان فى فالته .

وفى عرض فيلا لحكم المنظمة لطرابلس فى الفترة من ١٥٣٠ الى ١٥٥١ يعتمد فى الوقائع التى يذكرها على مؤرخ رسمى عاصر المنظمة فى هذه الفترة وسجل مادة متوافرة عن حكمها لطرابلس وهو المؤرخ Jacomo Basmio ، على أننا نختلف مع الباحث فى بعض الجوانب التى حاول أن يبرزها ، من ذلك ما ذكره أن سكان طرابلس « أيدوا المنظمة وحاربوا الى جانب فرسانها بل واستخدمهم الفرسان عيونا لهم وقد فعلوا ذلك لخوفهم من تسلط الأتراك العثمانيين عليهم » .

ولكن من المؤكد أن حظ فرسان القديس يوحنا فى طرابلس لم يكن بأحسن من حظ الأسبان فيها اذ اشتدت بمقدمهم غارات الأهالى على المدينة حتى يأس الفرسان من البقاء فيها ، بل أنه من المعروف طبقا لما ذكره بعض المؤرخين الطرابلسيين أن وفدا من أهالى تاجورا ذهب الى دار الخلافة طالبين من السلطان العثمانى نجدتهم وأن السلطان استجاب لهذا النداء وبالفعل أرسلت حملة عثمانية الى طرابلس فطردت الفرسان وسجلت انتصارا على القوى المسيحية فى البحر المتوسط التى كانت تتزعمها أسبانيا فى القرن السادس عشر ، وربما يكون فيلا قد استند فيما ذهب اليه الى بعض حوادث فردية أو أنه اعتمد على الجهود التى بذلها الفرسان فى محاولتهم كسب الناس الى جانبهم عن طريق نشاطهم المتزايد فى المجال الاسبتارى بصفة خاصة .

ويقرر فيلا أن فرسان القديس يوحنا قد استقروا فى طرابلس فى بداية الأمر واعتبروا أن طرابلس أهم لهم لخدمة مخططاتهم التى هدفوا بها الى اعادة السيطرة على رودس بل أنهم ترددوا فى الاستيلاء على طرابلس ومالطة فى آن واحد لأن ذلك يعنى تمزق قواهم على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يفصل بين مالطة وطرابلس سوى مائتين وعشرين ميلا ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هذا الفاصل فى ذلك الوقت كان يمنع من ارسال النجدات السريعة فى حالة الضرورة .

وعلى أية حال فقد ألقى على كاهل المنظمة فى طرابلس مسئوليات كبيرة أهمها حراسة الطريق البحرى بين مالطة وطرابلس ومساعدة الأسطول الأسبانى والبندقى والبابوى ضد القوى الاسلامية فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط ، هذا فضلا عن المتاعب التى كانوا يتعرضون لها من (القرصان) خير الدين بارباروسا . وقد استخدم فيلا لفظ قرصان وان كان المؤرخين المسلمين لا ينظرون الى أعمال خير الدين على أنها أعمال قرصنة وانما كانت نوعا من أعمال الجهاد فى البحر ضد القوى المسيحية فى شرق البحر المتوسط .

ومن الثابت أن فرسان القديس يوحنا على الرغم من أنهم كانوا لا يدفعون أية جزية للامبراطور شارل الخامس نتيجة استحواذهم طرابلس وغيرها ولم يتعد الأمر أكثر من الاعتراف بالولاء الا أنهم أحسوا أن طرابلس تكلفهم كثيرا وأخذوا يطالبون الامبراطور بمزيد من المساعدة لهم خاصة فى انشاء الاستحكامات فى طرابلس نظرا لتفاقم خطر الأتراك من ناحية وتفاقم الخطر الوطنى عليهم من ناحية أخرى . وأعتقد أن فيلا يعترف هذه المرة بما لاقاه الفرسان من متاعب من قبل السكان فى طرابلس ، على أن الامبراطور لم يستطع أن يجيب الفرسان الى مطالبهم على الرغم من السفارات التى بعثوا بها اليه بين عامى ١٥٣٩ — ١٥٤٣ وكذلك لم يستجب لهم البابا فى السفارة التى بعثوا بها اليه فى عام ١٥٤٧ — ولذلك بدأ الفرسان يفكرون فى التركز بقواتهم فى طرابلس ، وفى ذلك الوقت برز لافالت كزعيم للمنظمة فى جزيرة مالطة وكانت خطته تقوم على اخضاع طرابلس جميعها للفرسان باعتبارها مكانا صالحا للتمركز فى وسط البحر المتوسط وبدأ فرسان المنظمة بالفعل يضعون استحكامهم فى طرابلس ويحاولون تخليصها من التهديدات التى كانت تتعرض لها من قبل سنان باشا

ولكن سنان القائد البحرى التركى بمساعدة درغوث وهو مغامر بحرى ظهر فى طرابلس استطاعا خلال هذه الفترة هزيمة الفرسان واجبارهم على الانسحاب الى مالطة ، وعبثا حاول لافالت استعادة طرابلس فى الحملة الكبيرة التى بعث بها فى عام ١٥٥٩ بمساعدة فيليب الثانى ملك أسبانيا اذ ووجه بهزيمة شنيعة فى جربا فى عام ١٥٦٠ بل وصل الأمر الى حصار الأسطول التركى لجزيرة مالطة فى عام ١٥٦٥ ، بيد أن لافالت أبدى مقاومة باسلة فى تخليص الجزيرة من الأتراك العثمانيين الذين انسحبوا بعد مقتل درغوث خلال عمليات الحصار .

ومنذ ذلك العام صمم لافالت على أن يتخذ من مالطة مركزا لقوة الفرسان فى وسط البحر المتوسط وبالفعل قام بتحصين الجزيرة فى عام ١٥٦٥ واعادة بنائها من جديد وفيما بعد أطلق على عاصمتها اسم فالتا تمجيدا للدور الذى قام به فى هذا الصراع .

والدراسة الثالثة هى الدراسة التى قدمت فى تاريخ ليبيا الحديث وهى التى أعدها الأستاذ « عوض السعداوية » عن حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته وهى دراسة توضح ما كانت عليه ليبيا فى خلال الحكم العثمانى فى القرن السابع عشر ، ذكر الباحث أن العياشى مر بليبيا مع ركب الحجاج فى رحلاته للحج وقد بلغت رحلاته ثلاث ، وبذلك يكون قد مر بليبيا ثلاث مرات وكانت ليبيا تخضع خلالها للوالى العثمانى عثمان باشا الساقزلى خلال مدة ولايته من ١٦٤٩ الى ١٦٧٢ — ويتفق ما أورده العياشى مع من سبقه من الرحالة فى وصفه لطرابلس من حيث تمتع المدينة بالرخاء والأمن وكثرة المساجد والمبانى ورواج كثير فى التجارة ، غير أن اشادته بازدهار طرابلس لم يتعد أسوار المدينة الى الخارج حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها وقد اعتمد الباحث فى دراسته على رحلة العياشى وهى تقع ، كما رجعت اليها ، فى مجلدين كبيرين كتبا بالخط المغربى الذى يحتاج الى متخصص لقراءته ، وقد استطاع الباحث أن يستخلص من وصف العياشى ، حالة المناطق التى مر بها فى ليبيا ، وعن حالة الولاية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فمن الناحية السياسية ، ذكر خضوع ليبيا لسلطة العثمانيين ، ولكنه أكد أن سيطرة العثمانيين كانت لا تتعدى المدن الساحلية الى الداخل ، وكانت طرابلس هى مقر الوالى العثمانى ، وله عامل فى كل من بنغازى ودرنة وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية ، وعلى الرغم

من أنه كان هناك نظام للحكم فى المدن ، الا أن العياشى لم يذكر هذا النظام بالتفصيل ، أما فى الداخل فلم يكن للوالى العثمانى أية سلطة فعلية فمثلا : منطقة الجبل الأخضر لم يكن أهلها يخضعون لصاحب طرابلس خضوعا تاما ، وانما كانت القبائل تتنازع السلطة فى هذه المنطقة الى جانب اتاوة كان يفرضها صاحب أوجلة عليهم ، كذلك اقليم فزان لم يكن للعثمانيين أدنى سلطان عليه .

ومن وصف العياشى أمكن للباحث أن يستخلص حالة التأخر التى كانت عليها منطقة الجبل الأخضر ، كذلك اقليم برقة والمناطق الداخلية من طرابلس ، اذ كثرت عصابات قطاع الطرق الذين كانوا يستولون على ما يحمله الركبان والقوافل التى تمر بتلك المناطق ، ولم تنعم منطقة الجبل الأخضر بالاستقرار الا خلال فترة قصيرة استطاع فيها أحد الزعماء ويدعى « سيد روحة » من القضاء على قوة الأعراب ، ولكن هذه الفترة كانت بسيطة قصيرة أعقبتها فوضى شاملة حتى أن الحجاج والمسافرين الذين كانوا يمرون بليبيا كانوا يخشون من تلك المناطق التى تبدأ من قصر أحمد غربا الى الأسكندرية شرقا .

ويؤكد الباحث أن الفوضى لم تقتصر على الداخل بل أن بعض المدن كانت تنتابها الثورات من حين الى آخر ، ويستند فى ذلك على ما ذكره العياشى من ثورة درنة ، حينما ثار سكانها ، وكان أكثرهم من المغاربه ، وطردوا الأمير العثمانى ، وأن ما يذكره العياشى عن تلك الثورة وصعوبة قمعها ، انما يدل على سوء الادارة العثمانية دلالة واضحة .

ويفهم من كتابات العياشى أن الادارة العثمانية كانت تتمتع بشىء كبير من الحرية فى ادارتها لشئون البلاد ، ويعزى فى ذلك بعد المسافة بين مركز الادارة العثمانية فى استنبول ، والادارة العثمانية فى طرابلس ، مع صعوبة المواصلات فى ذلك الوقت كما تبرز أهمية كتاب العياشى أنه ذكر شيئا عن الجهاد البحرى ، وما يجنيه الليبيون والحكام من غنائم ، كما أن هذا الجهاد كان يلاقى تشجيعا من الحكام ، لأنه كان حركة ضد الفرنجة ، بل أن حكام طرابلس كانوا يستعدون له بالسفن القوية الضخمة .

وهناك بعض المعلومات التى أوردها العياشى ، خاصة بأوضاع ليبيا الاقتصادية ، سواء من ناحية زراعتها ، أو من حيث نشاط سكانها فى الصناعة

أو التجارة ، ومن ذلك أن العياشى مدح بعض الأراضى الليبية ، مثل أراضى جبل مسلاته ، والجبل الأخضر ، وذكر بعض الصناعات القائمة كصناعة الزيوت فى مسلاته ، وصناعة القرب ، الا أنه ذكر عنها أنها رديئة لا تحفظ الماء نقيا ، أما التجارة فقد أشاد العياشى بازدهارها كما مدح الجمال الطرابلسية ، وان كان لم يتعرض كثيرا لتجارة القوافل التى كانت تعد موردا هاما بالنسبة لاقتصاديات ليبيا فى ذلك الحين ، كما تحدث العياشى أيضا عن نظام الضرائب والمكوس ، وان كان للأسف لم يتعرض لذلك النظام بالتفصيل .

أما من الناحية الاجتماعية فقد قسم العياشى الشعب الليبى الى طبقتين ، من حيث مستواهما الثقافى . ووضعهما الاجتماعى : الطبقة الأولى من سكان المناطق العمرانية المأهولة بالسكان ، وهى على حظ من الثقافة الدينية والأدبية ، أما الطبقة الثانية ، وهى التى تسكن المناطق الداخلية ، وهى تتميز بالتنازع والتأخر الاجتماعى .

وأخيرا يصل الباحث الى النتيجة التى انتهى اليها من بحثه وهى أن العثمانيين عندما فتحوا ليبيا عام ١٥٥١ لم يسيطروا الا على بعض المناطق الساحلية ، بينما خرجت مناطق كبيرة فى الداخل عن سيادتهم واتخذت لنفسها طابعا خاصا فى حياتها ، وكان هذا الطابع يتميز بالفوضى ، مما أثر على المجتمع الليبى وما احتواه من تأخر ثقافى واجتماعى ، اللهم الا تلك الأعداد القليلة المثقفة التى كانت تعيش فى المدن ، والتى اشتغل بعض أفرادها بالتعليم الدينى والأدبى .

أما الموضوع الرابع من موضوعات تاريخ ليبيا الحديث ، الذى قدم الى المؤتمر ، فكان عن الظروف التى أدت الى احتلال على الجزايرلى لمدينة طرابلس الغرب (١٧٩٣ — ١٧٩٥) للأستاذ عمر بن اسماعيل ، المحاضر بالجامعة الليبية ، الذى تخصص فى دراسة الأسرة القرمانلية ، وأعد رسالة لدرجة الماجستير عن انهيار هذه الأسرة بليبيا (١٧٩٥ — ١٨٣٥) وقد أوضح فى الدراسة التى أعدها للمؤتمر الظروف التى أدت الى ضياع طرابلس من هذه الأسرة خلال سنتين ، تولى فيها على الجزايرلى الحكم ، ثم عادت الأسرة بعد ذلك الى الحكم من جديد ، حتى سقطت فى أيدى الدولة العثمانية فى عام ١٨٣٥ .

obeikandi.com

وقد بدأ الباحث بتمهيد مفصل عن وصول مؤسس الأسرة الى الحكم فى ليبيا ، ثم التخلخل والصراع الأسرى ، الذى أتاح لعلى الجزايرلى الوصول الى الحكم فى ليبيا ، وفرار أعضاء الأسرة القرمانلية الى تونس ، وقد رحب الديوان الطرابلسى بعلى الجزايرلى ، بعد أن سئم الليبيون حوادث العنف والفوضى .

والموضوع الذى يثيره الباحث أن الباشا الجديد وصل الى الحكم بالخديعة ، اذ أن السلطان العثمانى ، لم يكن يعلم بما حدث فى طرابلس ، وانما استخدم على الجزايرلى فرمانا مزورا للوصول به الى السلطة ، وقد استند الباحث فى ذلك على تقرير عثر عليه فى دار الوثائق التاريخية بطرابلس ، رفعه الصدر الأعظم الى السلطان العثمانى بخصوص أحداث استيلاء الجزايرلى على مدينة طرابلس ، وبدراسة هذه الوثيقة اتضح أن السلطان والصدر الأعظم كانا لا علم لهما بما قام به الجزايرلى ، وأن الفرمان الذى أبرزه الى الديوان كان فرمانا مزورا . وبعد أن اتضح للسلطان العثمانى حقيقة الأمر ، لم يقم بعمل أى شىء ، ولعل مرجع ذلك الى أن السلطان العثمانى كان لايهتم بأسماء الأشخاص الذين يتولون الحكم فى ولايته ، بقدر ما يهمه أن تبقى تلك الولايات خاضعة له حتى ولو كان ذلك من الناحية الشكلية ، ومسايرة لهذا المبدأ أصدر السلطان العثمانى فرمانا اعترف فيه بولاية على الجزايرلى ، كما أصدر أوامره الى والى تونس بالامتناع عن تقديم أية مساعدة عسكرية للقرمانليين الذين التجئوا اليه . ثم اتجه الباحث بعد ذلك الى دراسة الوضع فى طرابلس فى زمن ولاية الجزايرلى ، سواء من حيث الوضع الداخلى ، أو علاقة طرابلس بالدول الغربية ، أو بالأقطار المجاورة لها ، وخاصة تونس ، ففى الناحية الداخلية خيم على البلاد جو من الارهاب الشديد ، لم تعرف له البلاد مثيلا من قبل ، واضمحلت الناحية الاقتصادية ، كما اضطهد اليهود اضطهادا كبيرا كما أن العلاقات لم تسر فى وئام بين طرابلس والدول الأوربية ، وأخيرا دخل الباشا فى صراع بينه وبين باى تونس ، ويحتمل أن يكون زعماء طرابلس هم الذين دفعوه الى هذا العداء ، بهدف التخلص منه . وكان منشأ الخلاف بين الحاكمين ، مدينة جربة ، اذ حاول الجزايرلى استردادها من باى تونس ، ورد باى تونس على ذلك بفرقة عسكرية قادها أحد أفراد الأسرة القرمانلية اللاجئة فى تونس ،

وحاصر باى تونس بنفسه مدينة طرابلس ، فى الوقت الذى ووجه فيه الجزايرلى بثورة داخلية ، اضطر على أثرها الى مغادرة طرابلس فى ١٩ يناير سنة ١٧٩٥ ، وبانتهاء عهد الجزايرلى عادت من جديد الى حكم الأسرة القرمانلية ، اذ وصل يوسف باشا القرمانلى الى الحكم ، واستطاع أن يسجل لطرابلس عهدا من التقدم والازدهار لم تعرفه البلاد من قبل .

والموضوع الخامس من الدراسات التى قدمت للمؤتمر ، هو ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر ، للأستاذ مصطفى بعيو ، وزير التربية التعليم ، بالمملكة الليبية ، وقد استهل بحثه بأنه سيحاول اثارة بعض الجوانب البارزة فى تاريخ ليبيا فى (القرن ١٩) وأكد أن الجوانب التى سيثيرها يمكن أن يكون كل منها موضوعا للدراسة والتخصص فى الأقسام التاريخية ، اذ أن تاريخ ليبيا لا يزال يكشف فيه كل يوم شيئا جديدا والموضوع الأول الذى أبرزه هو علاقة يوسف باشا ، أبرز الولاة القرمانليين بالفرنسيين أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر عند مطلع (القرن ١٩) اذ نجح بونابرت فى توطيد علاقات الصداقة بينه وبين يوسف باشا ، وكانت أولى خطواته فى هذا السبيل هو اطلاق سراح الأسرى الليبيين ، مع غيرهم من أبناء الشمال الأفريقى . الذين وجدهم فى مالطة ، بعد أن تم له الاستيلاء عليها وهو فى طريقه الى مصر ، فكانت هـذه الخطوة بادرة طيبة من نابليون نحو يوسف باشا فى ليبيا ، والواقع أن نابليون كان يعمل على تهيئة المناخ الودى الصالح له فى الشرق ، وقد استفاد نابليون من هذه العلاقات الودية التى أوجدها مع والى ليبيا ، فعندما حوصر بجيشه فى مصر ، وانقطعت اتصالاته بفرنسا أمام الحصار الذى ضربه الأسطول الانجليزى على الشواطىء المصرية ، لجأ نابليون الى يوسف باشا ، ووجد فيه عونا فى أزمته، اذ سمح له باتخاذ ليبيا ممرا للاتصال بفرنسا ، وبالفعل استطاعت الحملة الفرنسية أن تتلقى بعض المعونات الأساسية من فرنسا ، عن طريق ليبيا وموانيها وقوافلها ، وأثار موقف يوسف باشا استياء كل من الدولة العثمانية والانجليز ، ولقد حاول السلطان العثمانى أن يجبر يوسف باشا على تجهيز قوة للهجوم على مصر من الغرب ، فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية تستعد للزحف عليها من الشرق ، وفى الوقت الذى كانت فيه البحرية البريطانية تستعد للهجوم من الشمال والجنوب ، كما طلب نيلسون قائد البحرية الانجليزية من يوسف باشا ، الكف

obeikandl.com

عن تقديم أية مساعدة للحملة الفرنسية ، واعتقال القنصل الفرنسى والحد من نشاط الجالية الفرنسية فى طرابلس ، وعمل نيلسون على احكام الحصار البحرى على يوسف باشا ، حتى اضطره فى نهاية الأمر الى الاستسلام ، وبالتالى منع تقديم أية مساعدة لرجال الحملة الفرنسية المحاصرين فى مصر ، ويرى الباحث أن الموقف الذى وقفه يوسف باشا القرمانلى فى بداية الأمر ، يفسر فشل الأسطول الانجليزى فى آحكام الحصار على الفرنسيين ، وهذا أمر لم يفسره الكثيرون ممن أرخوا لهذه الفترة ، كما يفسر أيضا اضطرار الفرنسيين الى التسليم عندما انقطعت الاتصالات بين فرنسا والحملة عقب الضغط الانجليزى على يوسف باشا ، ولكننا نختلف مع الباحث فى اتخاذه حوادث ثانوية لتفسير أحداث تاريخية كبيرة ، فلا شك أن انسحاب الفرنسيين من مصر أمر مرتبط بعوامل أبعد وأعمق من ذلك .

والموضوع الثانى الذى أثاره الباحث ، هو ربط المقاومة الوطنية التى تعرض لها نابليون فى زحفه من الاسكندرية الى القاهرة ، وبين النجدة التى ذكر أن أهالى ليبيا بعثوا بها الى مصر برئاسة رجل من أهالى درنة ، استطاع أن يثير حماس المشتركين فى المعارك ضد قوات نابليون الزاحفة ، بعد أن اعلن أنه المهدى المنتظر وأنه جاء لتخليص مصر من الغزاة .

والموضوع الثالث الذى تعرض اليه الباحث هو الخلاف الذى كان قائما بين يوسف باشا والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد حدث حول عدم الاتفاق على تقدير قيمة الجزية التى تدفعها الولايات المتحدة الأمريكية لحكام ليبيا ، حتى تضمن لنفسها حرية الملاحة فى البحر المتوسط ، ولما تعثرت المفاوضات كانت الحرب بين البحرية الليبية والبحرية الأمريكية ، واستطاع يوسف باشا أن يحرز بعض الانتصارات الأولية ، خصوصا عندما وقعت السفينة الأمريكية الكبيرة فيلادلفيا فى الأسر بطاقمها الكبير . الأمر الذى أغضب الولايات المتحدة وقد اعتمدت على أحد مغامريها وهو الجنرال ايتون Eaton فى استغلال النزاع الذى كان قائما بين يوسف باشا وأخيه أحمد باشا ، الذى لجأ الى مصر ، وبالفعل سار ايتون مع أحمد باشا فى الصحراء الغربية ، على رأس قوة كبيرة ، فى الوقت الذى كانت فيه البحرية الأمريكية تحاصر السواحل الليبية ، واستطاع ايتون أن يصل الى درنة ويرفع العلم الأمريكى عليها ، وكان هذا الحادث حافزا للولايات

المتحدة الأمريكية للاهتمام بتدعيم قوتها البحرية ، وقد سجلت البحرية الأمريكية هذا الحادث فى نشيدها الذى لا تزال تتخذه شعارا لها حتى اليوم .. ثم يعود الباحث الى التأكيد بأن انتصار الولايات المتحدة على ليبيا ، هو الذى أغرى الدول الأوروبية على ايقاف النشاط البحرى ، الذى كانت تزاوله بلدان الشمال الأفريقى ، بمقتضى قرارات مؤتمر فينا (١٨١٤ — ١٨١٥) وهو اتجاه آخر من الباحث للتركيز على أهمية الدور الذى كانت تقوم به ليبيا فى منطقة الشمال الأفريقى ، كما أكد على استقلال الشخصية الليبية فى العهد القرمانلى ، مستندا على الاتفاقية التى وقعت بين يوسف باشا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لم تشترك فيها الدولة العثمانية على الاطلاق ، ومن الجوانب الهامة التى أثارها الباحث ، النفوذ الذى تمتعت به انجلترا لدى يوسف باشا القرمانلى بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، وقد قابل ذلك بالنفوذ الذى حظيت به فرنسا لدى محمد على والى مصر ، وان كان النفوذ الذى حظيت به انجلترا لدى الأسرة القرمانلية لم تستخدمه لحماية هذه الأسرة ، اذلعب وارنجتون ، القنصل الانجليزى فى طرابلس ، دورا كبيرا فى انهاء الحكم القرمانلى ، خاصة عقب استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، اذ قدر الانجليز أن هذا الحادث يمكن أن يخل بتوازن القوى فى البحر المتوسط ، اذا ما استطاعت فرنسا بالتعاون مع محمد على ، الاستيلاء على ليبيا ، ولذلك رأت انجلترا أن تسهل وقوع طرابلس فى أيدى العثمانيين خوفا من وقوعها فى أيدى محمد على ، أو فرنسا ، وأشار الباحث الى الوثائق التى يمكن أن يرجع اليها من يريد ، دراسة مشروعات محمد على فى ليبيا ، فالى جانب أرشيف قصر عابدين بالقاهرة ، توجد مذكرات محمد بك بيت المال ، الوزير الأول ليوسف باشا ، والتى توجد حاليا عند أسرة السيد على الفقيه حسن بطرابلس .

ثم عرض الباحث لمساهمة ليبيا فى حركة الكشوف الجغرافية الأفريقية فى القرن التاسع عشر ، تلك الكشوف التى كانت تتجه فى ذلك الوقت ، الى غرب القارة لتحقيق مشكلة اتجاه النيجر ، وقد وجد الرحالة والمستكشفون فى عهد يوسف باشا ، التشجيع والحماية الكافية ، واستخدموا من مدن ليبيا وموانيها نقطا للوصول الى الداخل ، بواسطة طرق القوافل التى كانت تربط الساحل بالداخل .

وأخيرا يختتم الباحث دراسته بظهور الحركة السنوسية فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويشيد بجهودها فى خلق ادارة محلية بزواياها وبنظامها الاخوانى ، ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين تجارة القوافل ، وقد استطاعت ليبيا بفضل نشاط الحركة السنوسية أن تكون الدولة الحاجزة بين النفوذ البريطانى ، فى وادى النيل ، وبين النفوذ الفرنسى فى الشمال الأفريقى ، بعد أن احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وامتدت منها جنوبا الى السودان مع وادى النيل ، وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، وأخذت تتوغل منها جنوبا الى الصحراء الكبرى ، فى اتجاه غربى شرقى بالنسبة للقارة الأفريقية ، وكان لابد لهذين الاتجاهين المتعارضين ، أن يتصادما فى النهاية ، وهو ما حدث فعلا فى أزمة فاشودة ١٨٩٨ ، التى كان من جرائها اثارة أزمة حادة بين الدولتين وبين هذين الاتجاهين المتصارعين ، ظلت ليبيا محتفظة باستقلالها ، وكانت تمثل آخر بقايا الدولة العثمانية فى الشمال الأفريقى ، وقد ساعد هذا الصراع على بقائها بمنجاة من الوقوع فى أيدى بريطانيا ، أو فرنسا ، وبالتالى تأجيل مصيرها ، واتاحة الفرصة لايطاليا للاستيلاء عليها فيما بعد .

أما الدراسة السادسة من دراسات التاريخ الحديث التى قدمت الى المؤتمر ، فهى الدراسة التى تقدمت بها بعنوان موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ —١٩١٤ ، وقد بدأت الدراسة بالتأكيد على الجهود التى بذلتها ايطاليا لايجاد مصالح لها فى ليبيا منذ السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكانت ليبيا آخر الولايات العثمانية فى الشمال الأفريقى ، التى لم تسقط فى أيدى الاستعمار الأوروبى الذى أخذ يجتاح ولايات الدولة فى السنوات التى أعقبت مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، وقد استغلت ايطاليا اهمال الدولة العثمانية لشئون ولايتى برقة وطرابلس ، فى التأكيد على مصالحها فى هاتين الولايتين ، ولاشك أن الدولة العثمانية كانت مخطئة فى تقديرها بأن ايطاليا لن تجرؤ على احتلال ليبيا ، لأن انجلترا لن تسمح لها بذلك ، ولن تترك لها الفرصة التى تمكنها من تحقيق أطماعها ، حتى لا تثير عليها سخط العالم الاسلامى ، وقد كانت هذه الفكرة خاطئة فى تقديرنا لسببين :

الأول : أن حركة الجامعة الاسلامية أخذت تتراجع مؤقتا فى أعقاب الحركات الدستورية التى أخذت تجتاح العالم الاسلامى ، مع التسليم فى نفس الوقت أن العدوان الايطالى على ليبيا ، كان بعثا جديدا لحركة الجامعة الاسلامية . . والسبب الثانى : ان ايطاليا استطاعت أن تنال موافقه كثير من الدول الأوربية على احتلال ليبيا ، وبينما كان من الأجدى على الدولة العثمانية أن تشجع السنوسيين على حكم البلاد سارت على عكس هذه السياسة ، اذ اتجهت الى التضييق عليهم ، لخوفها من هذه الحركة وما قد تجره عليها من عداء مع الدول الأوروبية ، وبخاصة فرنسا ، التى كان السنوسيون مشتبكين معها ، بهدف ايقاف توسعها الأمبريالى فى غرب أفريقيا فى السنوات الأولى من ذلك القرن ، وعلى الرغم من أن الاحتلال الايطالى لليبيا ، حدث فى وقت بلغت فيه الموجة الامبريالية أقصى مدى لها ، فان كثيرا من المؤرخين يحملون الاتحاديين ، مسئولية فقدان ليبيا ، وتفريط الاتحاديين فى كثير من الأراضى العربية قد يكون موضوعا قابلا للمناقشة ، هل كان ذلك التفريط بقصد التنازل عن مناطق لا يمارس فيها الاتحاديون نفوذا فعليا نظير حصولهم على تأييد الدول الأوروبية ، أو اعانتها لهم فى أزماتهم المالية أو فى اصلاح شئون الدولة الادارية والعسكرية ، أم كان ذلك التفريط نتيجة لفساد رجال الدولة أنفسهم واستهتارهم ، خاصة حينما وصلت الى الصدارة العظمى ، وزارة ابراهيم حقى باشا ، اذ يعتقد الكثيرون ، أن حقى باشا كان متواطئا مع الايطاليين ، الذى ربطته بهم روابط عديدة أبرزها صداقته لبعض الشخصيات الايطالية ، ثم زواجه من احدى الايطاليات ، وظهر ذلك واضحا فى اهماله شئون الدفاع عن الولاية ، فى الوقت الذى كان التهديد الايطالى لطرابلس بالغ الشدة ، وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ ، وجهت الحكومة الايطالية انذارها الى الدولة العثمانية ، ونجح الأسطول الايطالى فى قطع المواصلات بينها وبين طرابلس ، وقد قدم المندوبان الليبيان فى مجلس المبعوثان طلبا لمحاكمة وزارة حقى باشا ، واتهامها بالخيانة العظمى ، لتركها طرابلس وبنغازى عاجزتين عن الدفاع ، ولكن حال دون هذه المحاكمة انتماء بعض أعضاء الوزارة الى حزب الاتحاد والترقى ، صاحب الأغلبية فى المجلس الذى اكتفى بسحب الثقة من الوزارة ، وحاولت الوزارة الجديدة معالجة الموقف فلجأت الى الدعاية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، والحقيقة أن الدولة

العثمانية لقيت التفافا من الأقطار الاسلامية ، ومن ولاياتها العربية ، حتى الولايات المنشقة عليها .

أما فى مصر فقد كان للحرب التركية الايطالية أثر بالغ فى السياسة المصرية ، ولذا رأينا تسهيلا للدراسة تقسيم موقف مصر من هذه الحرب الى عدة أقسام :

أولا : موقف سلطات الاحتلال والحكومة المصرية .

ثانيا : موقف الخديو عباس حلمى الثانى .

ثالثا : موقف الشعب المصرى .

كما تعرضنا لأهم المشكلات التى أثيرت فى بداية الحرب ، والتى كان أبرزها مسألة مرور الجيش العثمانى فى مصر ، اذ حاول الوطنيون استغلال ذلك لتأكيد سيادة الدولة العثمانية على مصر دفعا لتسلط الانجليز .

أما الموقف الذى اتخذه اللورد كتشنر ، المعتمد البريطانى فى مصر ، والذى وصل الى منصبه ، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه الحرب ، فقد كان يمثل وجهة النظر الانجليزية ، التى كانت ترحب بالاحتلال الايطالى لليبيا ، على اعتبار أنه يساعد فى ايجاد دولة عازلة فى طرابلس ، تمثلها ايطاليا لتعزل بين الانجليز فى مصر ، والفرنسيين فى تونس ، كما أن فرض الحماية الفرنسية على مراكش ، استتبعه ترحيب انجلترا بالاحتلال الايطالى لليبيا ، بعد أن أقدمت فرنسا على قلب ميزان القوى فى منطقة البحر المتوسط ، ولذلك اعترض الانجليز على مرور القوات العثمانية ، أو اتخاذ الدولة العثمانية مصر قاعدة لمحاربة الايطاليين ، على الرغم من أن مصر كانت تعتبر أصلح قاعدة للعمليات العسكرية ضمن الغزو الايطالى لطرابلس ، ويستدل من الوثائق التى تناولناها ، أن ايطاليا كانت تخشى بحكم حرج مركز الانجليز فى العالم الاسلامى من ناحية ، وفى مصر من ناحية أخرى ، أن يسمح الانجليز للقوات العثمانية بالمرور من مصر ، ولكن الدوائر البريطانية نفت ذلك نفيا قاطعا وأبدى السير ادوارد جرى ، وزير الخارجية البريطانية رأيه فى الموقف بأنه لا يمكن لبريطانيا أن تسمح لبلدة خاضعة لاحتلالها ، أن تكون مسرحا لعمليات عسكرية ، وأعلنت انجلترا وقوف مصر على الحياد من هذه الحرب ، على الرغم من تأجج الحماس الوطنى فى مصر تأييدا للدولة العثمانية ، وقد حاول المصريون رغم ظروف الاحتلال استمالة

الحكومة المصرية ، الوقوف الى جانب الدولة ، مستخدمين فى ذلك جميع الوسائل كما حفلت الصحافة الوطنية بالأسانيد القانونية ، كما طالبوا بارسال المدد والذخيرة من مصر الى طرابلس ، ومقاطعة المصالح الايطالية ، وضرورة اجلائهم عن البلاد ، وبينما كانت الحكومة البريطانية تتخذ هذه السياسة على المستوى الدولى ، الا أنها كانت على المستوى الشعبى ، تعمل على تشجيع حركة التبرعات المادية والعينية لنجدة الدولة العثمانية ، لأنها كانت تخشى فى حالة تعرضها للشعور العاطفى بشأن دولة الخلافة الى مساس بوضعها ، ليس فى مصر فحسب ، وانما فى مستعمراتها الاسلامية الأخرى وقد تعرضت أيضا لمدى تأثر الحركة الوطنية بالحرب الطرابلسية ، فالمصريون كانوا يرون فى ضياع مصر ، ضياعا لآمالهم فى الاستقلال ، وأن دفاعهم عن طرابلس ، هو فى نفس الوقت دفاعا عن مصر ، وعلى الرغم من آراء لطفى السيد التى ظهرت فى ذلك الوقت فى مقالاته المشهورة « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » الا أن هذه الآراء لم تحد من اندفاع الوطنيين بل اضطر لطفى السيد نفسه الى الاحتجاب فترة عن الحياة السياسية فى مصر ، كما عنيت فى هذه الدراسة بالتركيز على أن مساعدة المصريين للدولة العثمانية فى الحرب كان تأكيدا للشعور الروحى ومحاولة استغلال الموقف للصالح الوطنى ، فضلا عن تأكيد علاقات الجوار والأخوة بين مصر وليبيا ، أما عن الخديو عباس حلمى الثانى ، فقد وقف مترددا ، ففى البداية سهل ارسال الاعانات والبعثات الى المجاهدين فى ليبيا ، ولكن على أثر تحول الحرب لصالح الايطاليين عقب توقيع معاهدة لوزان ، تغير موقفه تبعا لذلك ، بل ان ايطاليا حاولت استغلاله للواسطة بينها وبين السنوسيين، وفى تنازله لها عن سكة حديد مريوط ، اذ أنها كانت تخشى من استخدام هذا الخط فى تسهيل ارسال الامدادات الى ليبيا ، وأخيرا أنهيت هذه الدراسة بأنه على الرغم من جميع الصعوبات والمعوقات التى واجهها الشعب المصرى لنجدة اخوانه الليبيين ، سواء من قبل سلطات الاحتلال أو من موقف الخديو والحكومة المصرية ، الا أن دور الشعب كان واضحا فى التطوع فى صفوف المجاهدين ، وفى تأسيس جمعيات الهلال الأحمر ، وفى دعوة الوطنيين الى القضية الليبية فى المحافل الدولية ، وفى مقاطعة المصالح الايطالية فى مصر ، ونشر المقالات الحماسية فى الصحف ، على أنه بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما تبعها من فرض

الحماية البريطانية على مصر (سنة ١٩١٤) تدخل الحرب الليبية الايطالية فى طور جديد ، اذ أحكمت انجلترا اغلاق الطريق المصرى كما طبقت الأحكام العسكرية واستبدلت المأمورين المصريين على الحدود بضباط انجليز ، كما حدث تحول هام ، اذ حاولت الدولة العثمانية الاعتماد على الليبيين فى محاربة الانجليز فى مصر ، وهذا الموضوع عنى به السير دنكان كمنج فى بحثه عن السنوسية فى الحرب العظمى الأولى ، وكانت هذه الدراسة خاتمة للدراسات التى قدمت فى تاريخ ليبيا الحديث ، كما كانت ختاما لجلسات المؤتمر فى الوقت نفسه ، والسير دنكان كمنج كان يعمل حاكما لولاية برقة عند طرد القوات الايطالية ، واحلال الادارة الانجليزية فى تلك الولاية عام ١٩٤٣ ، وقد أشار كمنج بأن الحرب العالمية الأولى كان لها تأثير كبير فى مناطق مختلفة من العالم ، فحينما أعلنت الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، كان الليبيون فى حرب ضد الايطاليين بقيادة السيد أحمد الشريف السنوسى ، وقد قام هؤلاء بتأييد الحاميات التركية فى برقة وطرابلس ، وأبلوا بلاء حسنا ، وأن المقاومة الباسلة التى قام بها السكان العرب فى ليبيا أثبتت عدم صحة اعتقاد الايطاليين بأن احتلالهم لليبيا لن يكون أكثر من نزهة حربية أو مجرد اجراء عسكرى شكلى .

وقد قسم الباحث الفترة من الغزو الايطالى لليبيا فى اكتوبر سنة ١٩١١ الى نشوب الحرب العالمية الأولى ، الى مرحلتين هامتين .

المرحلة الأولى : وتشمل نزول القوات الايطالية طرابلس .

المرحلة الثانية : حينما وقعت الدولة العثمانية ، معاهدة لوزان بينها وبين ايطاليا حول نهاية عام ١٩١٢ ، وانسحاب الوالى التركى من طرابلس تبعا لذلك .

وفى خلال المرحلة الأولى كان الليبيون يحاربون الى جانب القوات التركية وكانت الزوايا السنوسية تقوم بدور كبير فى سير القتال ، وترتب على هذه المقاومة أن الايطاليين لم يتمكنوا من التقدم بسهولة ، الى أبعد من الأماكن التى نجحوا فى السيطرة عليها ، وقد استطاع بعض الضباط الأتراك أن يصلوا الى برقة عبر مصر ، من أمثال أنور باشا ، حيث عملوا على تدريب الليبيين وتهيئتهم للقتال ، وقد جذبت المقاومة العربية أنظار المسلمين فى كافة الأقطار الاسلامية ،

بل الى بلاد أخرى خارج نطاق العالم الاسلامى ، ولكن اضطرت الدولة العثمانية ، على الرغم من التأييد المادى والمعنوى الذى حصلت عليه ، الى توقيع الصلح مع ايطاليا نظرا لانشغالها بمشكلاتها المتعددة .

ويعتقد كمنج أن الحرب البلقانية كان السبب الذى جعل الأتراك يوقعون الصلح مع ايطاليا ، وليس فى النجاح الذى حازته العمليات العسكرية الايطالية ، وفيما يبدو أن الطرفين ، ايطاليا وتركيا ، كانا على استعداد لتقديم تنازلات لانهاء حالة العداء بينهما ، فتركيا كانت مستعدة للانسحاب من ليبيا بشرط أن لا تقطع الصلات القائمة بين ليبيا وبين الخلافة الاسلامية ، أما ايطاليا فانها أعلنت سيادتها على ليبيا ، وفى أكتوبر سنة ١٩١٢ ، بعد توقيع معاهدة لوزان أو معاهدة أوشى كما عرفت ، بذلك تبدأ المرحلة الثانية من المقاومة الليبية التى تميزت بانسحاب القوات التركية ، وتمكن الايطاليون من طرابلس ، وحول عام ١٩١٥ اصبحت المعاقل الرئيسية فى فزان فى حوزة الايطاليين ، وان كان الوضع قد اختلف بالنسبة لبرقة ، فقبل توقيع معاهدة لوزان بوقت قصير ، كان السيد أحمد الشريف السنوسى ، قد نقل مراكزه من الكفرة الى الجغبوب ، ويعلل السير دنكان كمنج السبب فى ذلك ، الى أنه أراد أن يكون على مقربة من العمليات العسكرية ، فضلا عن أهمية جغبوب بالنسبة للنظام السنوسى ، وأيضا أنه يمكن أن يتم الاتصال بينها وبين مصر ، لأن مصر على الرغم من ظروف الاحتلال الانجليزى ، الا أنها قدمت مساعدات للسنوسيين أكثر من جيران طرابلس الآخرين ، وقبل أن يغادر أنور باشا برقة ليشترك فى الحرب البلقانية ، فى اكتوبر سنة ١٩١٣ ، وصل الى جغبوب كى يحرض السيد أحمد الشريف على مواصلة القتال ، ولكن حينما قابل السيد أحمد الشريف ، لم يجده فى حاجة الى تحريض ، فقد كانت الرسائل من جغبوب تحمل خاتم « الحكومة السنوسية » ، وعندما أوشكت الحرب العالمية على الاندلاع ، كان الايطاليون قد نجحوا فى السيطرة على الموقف نتيجة لتعرض الليبيين لقلة الأمطار ، وتفشى الأوبئة والطاعون ، ومع ذلك فقد استمر تصميمهم قائما ، وفى يولية سنة ١٩١٤ ، قابل الوكيل الايطالى فى القاهرة اللورد كتشنر ، وأكد له فى هذه المقابلة أن ايطاليا ستقوم بعملية عسكرية كبيرة ضد السنوسيين اذا فشلت فى الحصول على تفاهم معهم ، وعقب اعلان الحرب أصبحت المشكلة

الهامة بالنسبة لليبيين ، هل ستنساق تركيا وايطاليا فى هذا الصراع ؟ ولو حدث ذلك فالى أى جانب ينحازون ؟ ولما كان من هدف السنوسيين طرد القوات الايطالية من ليبيا ، فان هذا كان يعنى ارغام الجيش الايطالى على الجلاء عن المناطق الساحلية الحصينة ، التى استقرت بها القوات الايطالية ، وأصبح من الضرورى فى نظر الليبيين ضرورة التطلع الى القوة التى ستتحالف مع تركيا ، وبهذه الطريقة يمكن طرد الايطاليين من بلادهم .

ولما كانت هناك مجموعتان من القوى الأوروبية فى الفترة السابقة لنشوب الحرب ، وهما دول الوفاق الثلاثى (روسيا — بريطانيا — فرنسا) ودول التحالف الثلاثى (المانيا — النمسا — ايطاليا) ، ولما كانت ايطاليا قد جددت تحالفها مع ألمانيا والنمسا فى السنة السابقة لنشوب الحرب ، فقد كان من المعتقد أنها ستنحاز الى دول الوسط ، وعلى هذا الأساس يمكن أن تتعرض ايطاليا للهجوم من مصر وتونس فى آن واحد ، وأن تصادر الامدادات المرسلة الى القوات الايطالية فى ليبيا بواسطة الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى البحر المتوسط . أما موقف تركيا فقد كان موقفا غامضا على الرغم من أن الحوادث كانت تشير الى رغبة تركيا أن تحتفظ بحيادها خلال ذلك الصراع الأوروبى ، ولكن ينبغى أن يلاحظ أن موقف ليبيا كان أكثر سوءا فى حالة انضمام ايطاليا الى دول الوسط ، اذ أنها ستعد فى هذه الحالة من أراضى العدو ، خاصة بعد أن أصدر السلطان فرمان بتعيين السيد أحمد الشريف حاكما على ليبيا ، وفى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، أعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا ، ولكن الحرب بين ايطاليا وتركيا ، أو الحرب الجديدة بين تركيا وايطاليا تأخرت حتى أغسطس ١٩١٥ ، وفى الفترة من نوفمبر ١٩١٤ ، الى أغسطس سنة ١٩١٥ ، كانت الحوادث فى طرابلس قد شجعت أعمال المقاومة العربية ، فحول نهاية أغسطس ١٩١٤ ، حينما حدث الهجوم الألمانى على فرنسا ، استطاع أتباع السنوسية فى فزان تحطيم القواعد الايطالية ، وهذا الحادث يؤرخ بداية عملية المقاومة التى بذلت خلال الحرب ، والتى نتج عنها اضطرار الايطاليين ، خلال عام واحد الى الانسحاب من جميع الأماكن التى احتلوها فى فزان وطرابلس أيضا ، وأن كان الايطاليون قد تمكنوا فى خلال العام التالى من استرجاع مراكزهم فى طرابلس ، والتمركز بقواتهم فى كل من بنغازى ودرنة وطبرق ، كما تركزت القوات الايطالية فى

obeikandl.com

المناطق الداخلية كالمرج وبنينة ، ومع بعض المكاسب التى استطاع السنوسيون احرازها الا أن السيد أحمد الشريف كان مواجها ببعض المشكلات فى شرق برقة ، حيث كان مقيما بها خلال هذه الفترة ، وكانت خطة تركيا هى توثيق الصلات بين السلطان وأتباعه العرب ، وايجاد حالة من المعارضة ضد بريطانيا ، بين المسلمين عامة ، وليس فقط فى مصر والهند ، وعلى هذا الأساس أعلن السلطان العثمانى الجهاد أو الحرب المقدسة ، ولكن اعلان الجهاد لم يكن له أى تأثير فى مصر ، بعد اعلان الحماية البريطانية عليها ، وقطع العلاقات بينها وبين تركيا ، وركز الأتراك على السيد أحمد الشريف باعتباره قادرا على ايجاد حالة موائمة لهم غرب مصر ، فى الوقت الذى كانوا يقومون فيه بالهجوم على قناة السويس من فلسطين وسيناء ، وفى الحقيقة أنه فى خلال هذا الوقت بالذات قدم أنور باشا تعهدات سرية لايطاليا على أساس أن يعمل الأتراك على عقد الصلح بين الايطاليين والسنوسيين ، حتى يتمكن الجيش السنوسى من التفرغ للجبهة الغربية ، وكانت الدولة العثمانية تعتقد أن السيد أحمد الشريف ، يمكن أن ينال المساعدة العسكرية من أتباع السنوسية فى مصر وأن يحرض على قيام ثورة ضد الانجليز ، وحول بداية عام ١٩١٥ ، نقل السيد أحمد مراكزه من جغبوب الى مساعد ، التى تقع على مقربة من الحدود المصرية وميناء السلوم الذى كانت تحتله قوات مصرية انجليزية ، وحول ذلك الوقت ، وصل كل من أنور باشا وجعفر العسكرى الى مساعد ، حيث عملا على تنظيم الجيش السنوسى على نمط الجيوش الحديثة ، وقد عرف هذا الجيش باسم المحافظية ، وكان من المنتظر أن تتألف قوة المحافظية من ١٦ فرقة ، وتتكون من خمسة ضباط وأربعمائة جندى و٣٥٠ جمل ، وكانت هذه الفرق مشكلة من القبائل الليبية ، ثلاث فرق من العبيدات ، وواحدة من كل من قبائل الحسة — دورسا عواقير ، عرفه ، مينيفا ، بارسا . وأربعة من أولاد على فى مصر ، وفرقتان من السودانيين ، وواحدة من الطلاب ، ويعتقد كمنج أن المحافظية كان ينقصها العدد الكافى والامدادات المستمرة ، فلم يكن فى الواقع سوى جمل واحد لكل عشرة أفراد ، ولم يكن لديها سوى تسعة من الأسلحة الثقيلة ، ويرجع السبب فى قلة العتاد ، الى حصار الحلفاء ومصادرتهم وسائل التموين التى حاولت الدولة العثمانية أن تبعث بها الى جيش المحافظية ، وعلى الرغم

من القصور الواضح فان المحافظية كانت كافية لأن تسبب قلقا بالغا للانجليز فى مصر ، الذين كانوا يوجهون اهتمامهم الى حملة الدرنيل ، لكن السيد أحمد ، لم يستطيع أن يصل الى قرار نهائى بشأن عبوره الحدود المصرية وانما أبقى على اتصلاته مع كبار الأعيان فى مصر ، ومع الضباط الانجليز فى الجيش المصرى ، الذى كان يدعوهم الى زيارته بين آونة وأخرى ، وبواسطتهم تمكن من ارسال عدد من الرسائل الودية الى قائد الجيش الانجليزى فى مصر ، ورسائل تهنئة الى السلطان حسين كامل ، عقب وصوله الى العرش ، خلفا للخديو عباس حلمى الثانى ، وفى نهاية أكتوبر ١٩١٥ ، كتب أحد الضباط الانجليز ، بعد زيارته (لمساعد) يؤكد أن السيد أحمد ، لا يزال مترددا فى اتخاذ قراره ، على الرغم من أنه كان من الواضح فى ذلك الوقت بأن الحلفاء يحاولون غزو الدردنيل ، وكانت هناك آراء مختلفة حول القيادة السنوسية ، وهذه الآراء تعكس وجهات النظر التركية ، التى كانت ترغب فى أن تستمر فى الحرب ضد الايطاليين والانجليز ، وكان السيد ادريس السنوسى ، فى ذلك العام غائبا عن ليبيا ، ولكنه صمم على أن يذهب الى مصر فى خلال عودته ، وبالفعل وصل الى الاسكندرية من حيفا فى بداية عام ١٩١٦ ، وأصبح فى يقينه أن الغزو السنوسى لمصر لن يصادف نجاحا ، والى جانب ذلك فان السيد ادريس السنوسى ، كان يميل الى وضع نهاية للحرب ، وكان يقدر مدى ما تحمله الشعب الليبى من متاعب بالغة ، ولكن لم يلبث أن حدث توتر على الحدود فى خريف عام ١٩١٥ ، حينما وصلت الحرب العظمى الى ذروتها فى كل من أوروبا والعراق والدردنيل ، ونظر الانجليز الى الموقف نظرة حذرة ، لأنهم كانوا يعلمون أن الخطة التركية تستهدف الهجوم على قناة السويس ، فى الوقت الذى تهاجم فيه حدود مصر الغربية من ناحية ليبيا ، وتأكد ذلك كمايذكر السير كمنج ، عندما حاصرت احدى السفن الفرنسية فى يونية ١٩١٥ ، سفينة تركية كانت فى طريقها الى برقة ، حاملة معها ضابطين تركيين وخمسة آلاف جنيها ذهبيا ، وزيا موحدا لجيش المحافظية ، ورسالة من السلطان الى السيد أحمد الشريف ، يؤكد له فيها تعيينه واليا على ليبيا مع تعليمات خاصة تقضى بتشجيعه على مهاجمة جيوش الحلفاء .

وفى نهاية يونية سنة ١٩١٥ ، حدث هجوم من المحافظية على السلوم ، ويؤكد كمنج أن هذا الهجوم حدث دون أمر من السيد الشريف السنوسى ، بل أنه عاقب المسئولين عن وقوعه ، ولم تلبث بعد ذلك أن حدثت أحداث أخرى من سوء التفاهم ، حينما أطلق السنوسيون النيران على سفينة بريطانية ، وأخذ من بها أسرى الى بير حكم ، وقد بعث القائد البريطـانى فى مصر برسالة احتجاج الى السيد أحمد على هذا العمل ، وقد أجابه بأن الهجوم على السلوم لم يحدث بموافقته ، وفى نوفمبر سـنة ١٩١٥ ، حدث هجوم المحافظية على السلوم بتحريض من أنور باشا ، وانسحبت القوات البريطانية الى مرسى مطروح، ولكنها تمكنت من مهاجمة المحافظية فى العقاقير جنوب سيدى برانى ، وتمكنت من القبض على جعفر باشا العسكرى ، وفرقت الجيش السنوسى ، وأعادت احتلال السلوم فى مارس سنة ١٩١٦ ، حيث انسحب السيد أحمد الى سيوة ، ثم استقر به المطاف أخيرا الى تركيا حيث بقى هناك حتى وفاته ، وكان السيد أحمد قد تنازل عن جميع سلطاته العسكرية والسياسية ومسئولياته الى ابن عمه السيد محمد ادريس السنوسى ، الذى بدأ قيادته الطويلة فى عام ١٩١٦ ، وكان السيد ادريس ، يرغب فى السلم ولكن نورى باشا ، والقيادة التركية كانت لا تزال ترغب فى الحرب ، الى جانب الذين بقوا من جيش المحافظية ، وكان هؤلاء يعارضون بطبيعتهم السيد ادريس ، بل انهم ذهبوا الى طرابلس لكى يتصلوا بالقادة الطرابلسيين فى مصراته .

أما فى طرابلس فقد كانت الأحداث تسير بوضع مخالف لما كانت تسير عليه فى برقة ، اذ وصل أنور باشا الى مصراته بعد هزيمة الأتراك فى برقة ، وفى عام ١٩١٧ ، دعى الطرابلسيون الادريس ، لكى يتسلم قيادة الأمور فى طرابلس أيضا ، والمهم أن الادريسى ايمانا منه بضرورة اقرار الوضع فى ليبيا ، وربما تقديرا منه للموقف ، بدأ مفاوضاته فى الزويتينه جنوب بنغازى مع الانجليز والايطاليين ، وقد صاحب بعثة التفاوض الانجليزية بعض الأعيان المصريين ، الذين كان يعرفهم الادريس معرفة شخصية ، ولكن هذه المفاوضات تعثرت ، فأعيدت فى عكرمة على مقربة من طبرق فى العام التالى ، حيث تم تبادل الأسرى السنوسيين والايطاليين واتفاقية عكرمة لها جزئين : الأول ، للتطبيق السريع ، والجزء الثانى لمفاوضات مقبلة مع السلطات الايطالية ، ويختلف الادريس عن